ذاكرة شاهدة
على البقاء في
فلسطين

عندما انتصر القلم على البندقيّة:

مساهمة إثنوچرافيّة لدراسة أسباب عودة عيلبون

• رامز عيد •

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

عندما انتصر القلم على البندقيّة:

مساهمة إثنوچرافيّة لدراسة أسباب عودة عيلبون

رامز عيد

باحث ومحاضر في مجاليْ علم الانسان (الانثروبولوجيا) والقانون، الجامعة المفتوحة

ذاكرة شاهدة على البقاء في فلسطين 2

محرّر السلسلة: محمود يزبك

© كل الحقوق محفوظة (2024)

مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة

شارع هميچينيم (الملك جورج) 90، حيفا

هاتف: 048552035، فاكس: 048525973

www.mada-research.org

mada@mada-research.org

ذاكرة شاهدة على البقاء في فلسطين

تقع قرية عيلبون شرقيّ الجليل الأسفل، على الطرف الشماليّ الشرقيّ لسهل البطّوف، على ارتفاع أعلاه 200 متر عن سطح البحر، وهي من قضاء طبريّا. تجاورها المغار شمالًا، ودير حنّا وعرّابة غربًا، والبعينة-النّجيدات جنوبًا، وقريتا نَمَّرين وحطّين المهجَّرتان شرقًا. تمرّ غربها قناة المشروع القطْريّ للمياه ("مِكوروت") التي تضخّ مياهها من بحيرة طبريّا حتّى النّقب. تعود بداية تاريخ الاستيطان البشريّ فيها إلى الفترة البرونزيّة، قبل أكثر من 5,000 عام، وذلك وَفقًا لآخِر البحثيّات الأثريّة التي أُجرِيت في محيط القرية القديمة. وكما هو الشّأن في معظم القرى الفلسطينيّة في الجليل، كان نبع الماء القريب من عيلبون مصدر حياتها وعمرانها على مدى التّاريخ؛ إذ يرجّح البعض أنّ الاسم "عيلبون" مشتقّ من الاسم الآراميّ للنّبع ذاته: "عين لَبون" ويعني النبع الأبيض؛ وذلك لتدفُّق المياه ذات الرّغوة البيضاء منه، وهو ما أكّدته بعض روايات سكّانها الشّفويّة.

حتّى ستينيّات القرن الماضي، اعتمدت قرية عيلبون على فلاحة الأرض البالغة مساحتها 14,712 دونمًا، إلى جانب رعاية وتربية المواشي (الدبّاغ، 1965). من أسماء المواقع فيها: حواكير البلد، المسابغ، وادي العين، درب العين، الخلّة، اللوزة، الحمرة، وعرة أمّ خليل وغيرها. حتّى نهاية القرن التاسع عشر، كانت معظم أراضي عيلبون وَعريّة ملائمة لرعي الماشية وزراعة كروم الزيتون، وهو ما يفسّر قرار أهل القرية في بداية القرن العشرين زراعة معظم أراضيهم بهذه الشجرة "المبارَكة" (سرور، 1998).

السّكّان

يعيش في عيلبون، وَفق معطيات العام 2023،[1] نحو 5,500 نسمة، بعدما كانوا في العام 1948 نحو 650 نسمة من المسيحيّين الكاثوليك إلى جانب عائلة واحدة من الطائفة الأرثوذوكسيّة. بعد النكبة، انضمّت إليها بعض العائلات القادمة من قرى مهجَّرة مجاورة (حطّين -على سبيل المثال)، وقسم من أبناء العشائر البدويّة التي نصبت خيامها في المحيط القريب من القرية (عشيرة

1. دائرة الإحصاء المركزيّة الإسرائيليّة. (2023). **كتاب الإحصاء السنوي** 2023.

المواسي وعشيرة فوّاز)، وذلك رضوخًا لسياسات الدولة التي حاولت السيطرة على القبائل البدويّة التي لم تُهَجَّر. يشدّد أهل القرية اليوم أنّ علاقات أهاليها امتازت في تلك الفترة بالأخُوّة والجيرة الطيّبة، وكانت القرية كسائر شقيقاتها متجانسة من الناحية الاجتماعيّة، خالية من الطبقيّة الاقتصاديّة. التركيبة السكّانيّة في القرية تتوزّع على صعيد الانتماء الدينيّ الطائفيّ اليوم على النحو التالي: 62% من المسيحيّين الكاثوليك؛ 8% من المسيحيّين الأرثوذوكس؛ 30% من المسلمين السنّة.

منهجيّة البحث

لم يُنْصف المؤرّخون عيلبون، ولم يُكتَب بالتفصيل تاريخ نكبتها وولادتها من جديد، على الرغم من الأحداث العاصفة والمحن التي تعرّضت لها، باستثناء بعض المصادر الفلسطينيّة والمحلّيّة. من المحلّيّة، على سبيل المثال، إصداران لابن عيلبون المربّي إلياس سرور: كتاب "عيلبون: تاريخ وذكريات"، الذي صدر سنة 1997، وكتيّب "النكبة في عيلبون" الصادر سنة 1998. يستعرض المؤرّخ عادل منّاع (2016)، في كتابه "نكبة وبقاء: حكاية فلسطينيّين ظلّوا في حيفا والجليل 1948-1956"، بعضَ تفاصيل تهجير وعودة عيلبون، معتمدًا على شهادة وكتاب إلياس سرور (1997)، وشهادات شفويّة لثلاثة مسنّين من أبناء عيلبون.

هذه القرية الصغيرة الوادعة الواقعة في منطقة نائية من الجليل عاشت مجزرتين مَهُولتين، ونجت من عمليّة اقتلاع وتهجير متعمَّدة ومخطَّط لها، أعقبتها عمليّة نهب كامل لمحتوى بيوتها. نجحت هذه القرية في الصمود بفضل تصميم أهلها وشجاعتهم، وعوامل أخرى سنتطرّق إليها في هذه الدراسة، واستطاع العيلبونيّون العودة من لبنان بعد طردهم ببضعة أشهر قليلة. أسباب تجاهل البحث الأكاديميّ لحكاية نكبة عيلبون كثيرة ولا مجال لسردها كلّها هنا، لكن يكفي ذكْر التعتيم الشامل الذي فرضته دولة إسرائيل على المجزرة والتهجير، فضلًا عن سرّيّة الوثائق العسكريّة الرسميّة التي أُخفِيت في أرشيف دولة إسرائيل عدّة عقود. ولا زال الجوّ السياسيّ القوميّ اليهوديّ المتطرّف يخيِّم على الإعلام وعلى قسم كبير من الأكاديميّة الإسرائيليّة المختصّة بتاريخ

هذه البلاد، فحالَ بذلك دون أيّ إمكانيّة للبحث المعمَّق الذي يرتكز على شهادات أبناء القرية، بل إنّ بعض المؤرّخين قد ارتكبوا عدّة أخطاء بشأن معلومات أساسيّة عن نكبة عيلبون بسبب اعتمادهم على الوثائق الإسرائيليّة فقط. على سبيل المثال، يذكر بيني موريس في كتابه "ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيّين" أنّ أهل عيلبون كانوا من الموارنة، وأنّ نصفهم لم يعودوا، وهم لا زالوا لاجئين في لبنان إلى يومنا هذا" (موريس، 1991، ص.ص. 229-230). هذا الخطأ الكبير لدى موريس لا زال بعض المؤرّخين الذين لحقوه يعتمدونه، ومن بينهم إيلان پاپه في كتابه "التطهير العرقيّ في فلسطين"، حيث يضيف من عنده معلومة مخطوءة أخرى مُفادها أنّ الجيش الإسرائيليّ استوقف أهالي القرية أثناء عمليّة طردهم، وأمر نصف السكّان (المسيحيّين فقط) بالعودة فورًا إلى القرية، ولم يطرد سوى نصف سكّانها من المسلمين إلى لبنان (پاپه، 2006، ص. 183)، وتلك رواية ليس لها أيّ أساس من الصحّة على الإطلاق، ولم يوضّح پاپه في كتابه ما هي مصادره بشأن هذه الرواية.

في محاولة متجدّدة لصياغة تاريخ عيلبون الأقرب إلى الحقيقة، سنستعرض في هذه الدراسة نكبة القرية في نهاية شهر تشرين الأوّل سنة 1948، وتهجير الأغلبيّة الساحقة من سكّانها إلى لبنان. ومن ثَمّ سنتناول جهد وشجاعة كاهن القرية الخوري مرقس المعلّم الذي لم يتوانَ عن القيام بمحاولات في هذا الصدد، تمثّلت في الكتابة والتواصل والالتقاء بشتّى الجهات الرسميّة العربيّة والإسرائيليّة والعالميّة، على نحوِ ما يُستدَلّ من يوميّاته التي كتبها في عيلبون آنذاك، ومن وثائق رسميّة إسرائيليّة ودوليّة كوثائق لجان الأمم المتّحدة التي حقّقت وتداولت مجزرة عيلبون، وهي وثائق تُعْرَض وتُستخدَم لأوّل مرّة في عمل بحثيّ عن عودة عيلبون. وفي الأساس، تعتمد الدراسة على مجموعة كبيرة من الشهادات الشفويّة لأهل القرية ممّن عاشوا تلك الفترة (25 شخصًا)، التي جمعها على مدار السنين الأخيرة كاتب هذه الدراسة، بالإضافة إلى قسم آخَر جمعه وسجّله الصحفيّ وديع عواودة.

تجدر الإشارة إلى أنّ للتاريخ الشفويّ تأثيرًا بالغًا على توثيق التّاريخ في العالَم في النصف الثاني من القرن العشرين، إذ انتشر استخدامه كمنهجيّة بحثيّة في عدّة مجالات أكاديميّة، واعتُرف بمصداقيّتها العلميّة، وذلك بفضل تطويرها أوّلًا ضمن الأبحاث الميدانيّة للباحثين في علم الإنسان ("الإنثروپولوجيّين")

منذ نهاية القرن التاسع عشر. لقد أضفت هذه المنهجيّة الطابع الديمقراطيّ على دراسة الماضي من خلال تسجيل تجربة الأشخاص الذين "حُجِبوا عن التاريخ"، وبذلك فُتِح المجال أمام "الإنسان البسيط" أن يؤثّر على كتابة التاريخ، بعد أن دوّنه الأقوياء والمنتصرون فقط.

تتمحور الدراسة حول السّؤال: لماذا عادت عيلبون إلى الحياة بعد تهجيرها، بخلاف جارتَيْها نَمَّرين وحطّين على سبيل المثال؟ وهو سؤال بحثيّ لم تتّفق الإجابات بشأنه لدى من كتبوا عن عيلبون؛ فعلى سبيل المثال، يرى عادل منّاع أنّ المجزرة التي ارتُكِبت في عيلبون وحكاية التّهجير والعودة: "ظلّت لغزًا محيِّرًا حتّى الآن. فمَن الذي اتّخذ القرار بهذا العقاب الجماعيّ القاسي في عيلبون، ولماذا؟ هذه مسألة لم تتبيّن بعد. علاوة على ذلك، يُعتبر قرار السماح بعودة المهجَّرين من لبنان بشكل شبه سرّيّ، وبطرق ملتوية، لغزًا آخَر" (منّاع، 2016، ص. 114).

نكبة عيلبون

سادت مناطقَ فلسطين الشماليّة في نهاية صيف عام 1948 حالة من النفور والخوف من المجهول، بعد خسارة القوّات العربيّة للكثير من المناطق الجنوبيّة. تمركزت كتيبة من قوّات جيش الإنقاذ في الأطراف الجنوبيّة من قرية عيلبون، في محاولة أخيرة منها لبناء خطّ دفاع مواجِه للقوّات اليهوديّة القادمة من صوب الناصرة. اعتمدت قوّات جيش الإنقاذ هذه على سكّان عيلبون لضمان سبل معيشتها اليوميّة، وتعاون أهل القرية معهم ببناء المتاريس حينًا، وأُجبِروا على العمل بالسخرة حينًا آخَر، وكذلك حضّر أهل القرية الطعام ووزّعوه يوميًّا على العسكر في مواقعهم على سفوح الجبال القريبة: "الخبز كلّ يوم على عيلة. يقولو (للزلمة) روح اشتري أو اشحد، المهمّ تجيبلنا بين 100 [200 رغيف كلّ يوم. وإلّا بوكل بهدلة وقتلة".[2]

يروي كلّ مَن قابلناهم من سكّان القرية أنّ ظلم أفراد جيش الإنقاذ وقسوتهم تجاه السكّان جعلا أفراد هذا الجيش أعداء للقرية، بدلًا من أن يكونوا الحليف

2. من شهادة أنطون معلّم.

الحامي لهم ("جيش القمل" -على حدّ تعبير بعض سكّان القرية). إلى جانب الضغط الاقتصاديّ، عانى السكّان من عنف متكرّر؛ فكلّ عصيان لأبسط الأوامر كان يُفْضي إلى فرض عقاب فرديّ أو جماعيّ بالضرب بالفَلَق والجَلْد بالسوط: "كانوا يقتلوا.. جلدوا وغلّبوا الناس. وكانوا حاطّين واحد بالبلد تحت، يظلّ يعمل أبو علي، ويسقي مَيّ وملح للناس. ويضرب بكرباج... كان واحد اسمه محمود الترك. أعور بعين وحدة. فِش أسفل منه."[3]

وبلغ الجهل ببعض الجنود أن ظنّوا أنّ قرع جرس الكنيسة يوم الأحد كان إشارة تجسُّسيّة لصالح اليهود، فنسبوا للعيلبونيّين صفة الخَوَنة، ومنعوهم من قرع الجرس (سرور، 1997). ولكن الظلم الأعظم الذي تذكره الشهادات الشفويّة باقتضاب أحيانًا -ربّما لهَوْل الذاكرة- كان في محاولات اعتداء بعض جنود جيش الإنقاذ جسديًّا على عدد من نساء وأطفال القرية (شهادة أنطون معلّم)، أو إرغامهم جميعًا على شرب محلول من الماء والملح (شهادة صبحي سرور وحبيب زريق)، وهو ما يتماشى مع رواية محمّد نمر الهوّاري في كتابه "سرّ النكبة" (1955)؛ إذ ادّعى أنّ بعضًا من أفراد هذا الجيش كانوا في الأصل من المحكوم عليهم في بلادهم بالسَّجن لارتكابهم جرائم قتل أو اغتصاب أو سرقة، فأرسلتهم الحكومات العربيّة وقيادة جيش الإنقاذ كجنود غير منضبطين وعديمي التدريب إلى فلسطين تحت قيادة القاوقجي (الهوّاري، 1955، ص. 200). على ضوء ذلك، يرى الكثيرون من أهالي عيلبون، الذين سجّلنا شهاداتهم، أنّ نكبتهم قد بدأت فعليًّا مع قدوم جيش الإنقاذ إليها.

حادثة قطع الرؤوس

يصف أبناء القرية في شهاداتهم الشفويّة جريمة حرب اقترفها جنود من جيش الإنقاذ قرب قرية حطّين قبل بضعة أسابيع من احتلال الجيش الإسرائيليّ لعيلبون (في الثلاثين من شهر تشرين الأوّل)، فكانت لاحقًا مبرِّرًا استخدمته القوّات اليهوديّة لارتكاب المجزرة الجماعيّة في عيلبون. يروي بطرس متّى (الذي كان آنذاك في الثانية عشرة من عمره) أنّه في عصر أحد الأيّام، هرع مع الكثيرين إلى مركز القرية ("الحارة")، وهناك رأى رجلين غريبين يمتطيان فرسين، ويَعرضان أمام الجميع رأسَيْ جنديَّيْن يهوديَّيْن مقطوعَيْن. عبّر

3. من شهادة بطرس متّى (كان في الثانية عشرة من العمر عام النكبة).

الكثيرون عن امتعاضهم الشديد، وصاح بهم الخوري حنّا من بيته: "بجاه ألله تْدَشُّروا هالبلد"، فيجيبه أحد جنود جيش الإنقاذ بوقاحة: "لولا ثوبك، كان عملنا فيك مثلهن".[4] بَيْدَ أنّ توسُّل أهل القرية ووجهائها لم يَثْنِهِم عن إرغام بعض الأطفال في عيلبون عنوة على رفس الرأسَيْن بأرجلهم.

تُجْمِع الشهادات الشفويّة على أنّ مَن قَتَلَ الجنديَّيْن وقطع رأسهيما هو جنديّ من جيش الإنقاذ، وأنْ لا شأن لأهل عيلبون بالجرم: "فوزي منصور من جنين... هو اللي قطع الروس. كان بجيش الإنقاذ، قطع الروس وجابهن عالبلد".[5]

تؤكّد هذه الشهادةَ، بشأن هُويّة قاطع الرؤوس أيضًا، شهادةُ كلّ من جوزيف معلّم، وبطرس متّى، وملكة شوفاني، وراضية أبو درويش وغيرهم من أهل عيلبون. ووَفقًا لشهادة بطرس متّى، كان قد التقى مصادفة، في سنوات السبعين من القرن العشرين، أختَ أحد الجنديَّيْن اليهوديَّيْن اللذَيْن قُطِع رأس كلّ منهم، وهي من سكّان مستوطَنة "مِتْسپه" قرب طبريّا، فيشاء القدر أن يقوم هو ذاته ببناء بيتها دون أن يعلم أنّها أخت الجنديّ. وفي النهاية أخبرته بأنّها كانت جنديّة مع الفرقة التي احتلّت عيلبون، وأنّها هي التي طالبت بالانتقام الشديد لأخيها. كذلك يكشف المؤرّخ بيني موريس أنّه إلى جانب الرغبة بالانتقام، كان الهدف العامّ من وراء عمليّات القتل في القرى الفلسطينيّة هو ترهيب الناس بغية تهجيرهم وَ"تطهير" الجليل منهم، وذلك بتوجيه من دافيد بن چوريون لقادة الجيش (موريس، 2008)، وعلى وجه الخصوص كلّ القرى العربيّة الواقعة في مناطق الدولة اليهوديّة وَفْق قرار الأمم المتّحدة الصادر سنة 1947 (سرور، 1998).

احتلّ لواء "چولاني" عيلبون في صباح الـ30 من تشرين الأوّل عام 1948، وذلك ضمن عمليّة احتلال الجليل ("عمليّة حيرام") الذي كان آنذاك تحت سيطرة جيش الإنقاذ. بعد أن اجتمع أهل عيلبون داخل الكنيستين في تلك الليلة، استسلموا دون قتال، ورفعوا الراية البيضاء. أخرج الجنود الأهالي، وجمعوهم في ساحة الحارة، وأطلقوا في البداية رصاصة على شابّ من منطقة حوران (عازر سالم مسلَّم)، كان يعمل في القرية، ولضعف سمعه لم يتحرّك من مكانه

4. من شهادة جوزيف معلّم.
5. من شهادة فايزة متّى، وبطرس متّى، وأنطون معلّم.

وَفْق أوامر قائد الجيش، فأَرْدَوْه قتيلًا على مسمع ومرأى الأهالي، حيث أصيب بطرس متّى برجله من جرّاء نفس الطلقة (شهادة بطرس متّى). اختار الجنود بعدها اثني عشر شابًّا من بين الجمع، وأعدموهم بدم بارد، فيما طُرِد بقيّة الأهالي إلى المغار أوّلًا، ومن هناك أرغمهم الجيش على السير حتّى الحدود اللبنانيّة (مذكّرات الخوري مرقس، السبت 30 تشرين الأوّل). بطرس، الذي بقي مصابًا في الحارة، كان شاهد العِيان على عمليّة قتل الشباب:

حاييم بطاطه هو كان قائد الفرقة وهو من طبريا. الخوري مرقس قال لحاييم بطاطه: أنا سلّمتك بلدي وهيك بتعمل؟ قال له: إنت لولا الثوب اللي عليك لأكلت منّي أكبر عقاب. روح على كنيستك. أنا ظلّيت قاعد، كنت مصّاوَب. حكوا الجنود مع بعض كمان مرّة، بعدها رفع حاييم بطاطه إيده لفوق، ورفع ثلاث أصابع، وقال ثلاثة يقوموا لهون. حكى بالعربي... وأنا قاعد بعيد عنهن مترين. أخذوهن على الشارع وسمعنا قْواس. رجعوا العسكر يضحكوا. قالوله راحوا. أخذوا كمان ستّة وطخّوهن. وآخر ثلاثة طخّوهن قدّامي وسال دمّهن بالحارة. أنا رحت أركض على الكنيسة وحكيت للخوارنة شو صار.[6] (زوخروت- ذاكرات، 2012، ص. 38).

قتل الجيش الإسرائيليّ في ذلك الصباح المشؤوم اثني عشر شابًّا من أبناء عيلبون (بالإضافة إلى عازر سالم مسلَّم)، وهم (سرور، 1998):

1. بديع جريس زريق
2. رجا مخايل خليل نخلة
3. جريس شبلي حايك
4. زكي موسى نخلة اسكافي
5. حنّا إبراهيم خوري أشقر
6. عبد الله سمعان شوفاني
7. فضلو عيلبوني
8. فؤاد نوفل زريق
9. ميلاد فيّاض سليمان
10. ميخائيل متري شامي
11. نعيم غنطوس زريق
12. محمّد خالد أسعد

6. من شهادة بطرس متّى

النُّصب التذكاريّ لضحايا نكبة عيلبون على مدخل المقبرة المسيحيّة في القرية (زوخروت-ذاكرات، 2012).

لم يسمح الجيش إلّا لبعض كبار السنّ والنساء الحوامل والكهنة بالبقاء في عيلبون؛ ففي 1948/11/8، لم يبقَ في القرية سوى 93 شخصًا من أصل 650، حسب إحصائيّات الحكم العسكريّ (سرور، 1998). فضلًا عن هذا، اعتقل الجيش مجموعة من الشباب وأرسلهم إلى المعتقل في عسقلان. على مدار عدّة أيّام، بعد التهجير مباشرة، يروي الخوري مرقس أنّ الجيش دخل البيوت المفرَّغة من سكّانها، وبدأ بتكسير الأبواب وسرقة الأثاث منها:

> وبعض الجيش يدخلوا إلى بيوت القرية ويأخذوا منها ما خَفّ حَمْله وغلا ثمنه ونحن أمام كلّ فريق نصرخ ونستغيث... وساقوا كلّ ما في البلدة من بقر وماعز وغنم وخيل وبهائم... وكانت الخمسة أيّام الأولى، من السبت إلى الأربعاء، لا ينقطع العمل، والسيّارات الترك تحمّل، حتّى سلبوا كلّ فِراش وأثاث ومحتويات الخزائن. (مذكّرات الخوري مرقس، 4 تشرين الأوّل).

خلال طريق الآلام إلى لبنان، عانى أهل عيلبون من التعب المضْني والجوع والعطش إثر الطرد المفاجئ. يروي أنطون معلّم أنّ إحدى النساء اضطُرّت إلى ترك ابنتها على الطريق بين أشجار الزيتون ليجدها آخرون لاحقًا. كذلك تعرّض الجيش اليهوديّ للمطرودين، وسرق كلّ ما يحملونه من ذهب وحليّ ومال، وقُتِل سمعان شوفاني قرب قرية كفر عنان بعد أن رشّه الجنود بالرصاص. مات سمعان ولم يعرف أنّ ابنه عبد الله قد قُتِل قبل بضع ساعات مع الشبّان الاثني عشر في عيلبون.[7]

في الثاني من تشرين الثاني، كرّر الجنود الخطّة نفسها التي نفّذوها في عيلبون قبل ثلاثة أيام. فبعد أن طردت القوّات اليهوديّة معظم أبناء عشيرة المواسي البدويّة من أراضيهم شرقيّ عيلبون إلى ما وراء الحدود السوريّة، اقتادوا ستّة عشر (16) شابًّا من أبناء العشيرة ليعدموهم قرب القرية. وقد نجا منهم سعد محمّد الذيب الذي روى لأقربائه ما جرى لاحقًا:

> كنّا نسمع صوت البارود. قتلوا ناس من عيلبون، وقتلوا 15 نفر من المواسي بمنطقة باب الثنايا. أنا كنت سارح بطرشنا، نزلت على السهل، شفت واحد لابد ورا سرّيسة (شجيرة). عرفته، من جماعتنا. اسمه سعد من المواسي. سألته شو صار، قال طخّونا، وبَس أنا نجيت من الموت... المقتولين كانوا مصفوفين بصفّ واحد، مطخوخين من قدّام، مرشوشين رشّ.[8] (زوخروت-ذاكرات، 2012، ص 12-13).

قتلت القوّات الإسرائيليّة أبناء عشيرة المواسي التالية أسماؤهم (سرور، 1998):

1. عطيّة حمّود ارشيد
2. معجل عطيّة ارشيد
3. مقبل عطيّة ارشيد
4. صالح عبد الله ارشيد
5. سعيد محمّد قاسم
6. أسعد محمّد قاسم
7. باير حسن طه
8. محمّد محمود طه
9. حسين إبراهيم أحمد
10. حسن قاسم وحش
11. محمود حسن نوادري
12. أحمد حسن نوادري
13. خالد عبدو نوادري
14. صالح يوسف رملي
15. نايف أسعد عيسات

7. شهادة فايز عيد.
8. من شهادة خليل حسين الشواهدة

النصب التذكاريّ لضحايا نكبة عيلبون من أبناء عشيرة المواسي على مدخل المقبرة الإسلاميّة في القرية (زوخروت-ذاكرات، 2012).

اقتادت قوّات الجيش الإسرائيليّ أبناء عيلبون إلى حدود لبنان، وساد جوّ من الخوف واليأس، حيث قلّة الطعام والماء، وظنّ أهلها أنّهم ليسوا راجعين أبدًا: "وبعد أن خرجنا من المغار، صاح أحد الشيوخ بأعلى صوته: ماتت عيلبون! فَعَلَا بكاء النسوة ونواحهنّ، واستمرّت المسيرة شبيهة بشريط سينمائيّ صامت، موسيقاه بكاء الأطفال وعويل النساء ونفثات صدور الرجال وصريف أسنان الجميع." من شهادة إلياس صليبا سرور، في كتابه (1997، ص. 88).

وصل معظم أهالي عيلبون إلى مخيّم "الميّة وميّة" على سفح تلّة شرقيّ مدينة صيدا، وهو المخيّم نفسه الذي أوى أبناءَ جيرانهم من قرى حطّين ونَمَّرين ولوبية، وعانَوْا من سوء معاملة المسؤولين في المخيّم، والتمييز في توزيع المخصَّصات، ورداءة الطعام.[9]

9. شهادة ملكة عيد

لم تنتهِ مأساة عيلبون بترحيل أهلها إلى لبنان وارتكاب مجزرتَيْن ضدّ أبنائها العُزَّل فحسب، بل قُطِعت أوصال الكثير من الأُسَر في الطريق إلى لبنان نتيجة قيام السلطات الإسرائيليّة باعتقال العشرات من الشباب في معسكرات اعتقال (صرفند؛ إجليل؛ عتليت؛ تل لڤينسكي) لِمُدَد تراوحت بين ستّة شهور، وسنة وثلاثة شهور.[10]

أعجوبة العودة إلى عيلبون

لا شكّ أنّ إصرار أبناء القرية وحبّهم لها كانا المحرِّكَ الأوّلَ الذي ما انفكّ يشجّعهم على الرجوع. فبدأت العودة لأعداد قليلة منهم في يوم التهجير نفسه، كالذين هربوا منها إلى الجبال قبل دخول الجيش الإسرائيليّ، أو الذين كانوا في قرى مجاورة ملتجئين عند أقاربهم. لكن هذه العودة كانت محفوفة بمخاطر التعرُّض لاعتداء جسديّ أو لطردهم مجدَّدًا (سرور، 1998).

الوثائق التي في أرشيف دولة إسرائيل، والتي تحتوي على معظم رسائل أبناء القرية إلى السلطات، ومذكّرات الخوري مرقس المعلّم، بالإضافة إلى الشهادات الشفويّة، كلّها تثبت مدى مبادرة الخوري مرقس وشجاعته في المطالَبة والسعي إلى إرجاع أبناء القرية، والحملة النشيطة والناجحة من الاتّصالات والمراسلات الدبلوماسيّة الدوليّة والمحلّيّة، والتي قادها هو بمساعدة آخرين. وسأستعرض في ما يلي المحطّات الأهمّ التي أسهمت في تغيير قرار السلطات الإسرائيليّة بمنع السكّان من الرجوع إلى عيلبون، ومن ثَمّ سأناقش حملة المطالَبة بتسجيل السكّان الراجعين، وتسجيل أراضيهم التي حاولت السلطات انتزاعها منهم.

تُظهِر المصادر جميعها أنّ الخوري مرقس، الذي بقي في عيلبون بعد التهجير، باشر بكتابة الرسائل وتوجيه الرسُل إلى جهات مختلفة لشرح ما حدث للقرية والمطالَبة بالمساعدة، فهو "الشخص الوحيد اللي بعرف الكَتابة والقراءة من أهل البلد اللي بقيوا فيها".[11] كانت رسالته الأولى -وربّما الأهمّ- بعد خمسة أيّام من الاحتلال، وأرسلها إلى المطران المنفيّ جورج حكيم في بيروت. بعث بها مع فارس ذيب شواهدة مواسي. وصلت الرسالة أوّلًا إلى ابنه عبد الله معلّم، الذي

10. شهادة حبيب زريق
11. شهادة أنطون معلّم.

كان يعمل موظّفًا في بنك باركليس في بيروت، وحنّا معلّم ابن أخيه، والمختار فرج سرور. فاجتمعوا مع المطران، وأعلموه بما حدث في عيلبون. بالتشاور في ما بينهم، اتّفقوا أن يتوجّه عبد الله إلى فؤاد عمّون، مندوب لبنان في هيئة الأمم المتّحدة، كي يطالب بالتدخُّل الدوليّ الفوريّ. يَذكر جوزيف معلّم (ابن الخوري مرقس) أنّ أخاه عبد الله كان على معرفة سابقة بفؤاد عمّون، وهو ما سهّل عمليّة نقل الرسالة إلى الأمم المتّحدة، حيث التقى به قبل سفره بيوم واحد، وسلّمه رسالة الخوري مرقس الخطّيّة ليعرضها أمام ممثّلي الدول. ويؤكّد فايز عيد أنّه بعد أن وصل مع عائلته إلى مخيّم الميّة وميّة، ذهبوا إلى المطران حكيم لطلب المساعَدة، وأخبرهم أنّ القضيّة سوف تُطرح في اليوم التالي أمام مندوبي الدول.[12]

يَذْكر المؤرّخ مايكل پالومبو (Michael Palumbo) في كتابه "الكارثة الفلسطينيّة" أنّ أهل قرية عيلبون التقَوْا مصادَفةً أثناء مسيرة ترحيلهم إلى لبنان مع مراقب الأمم المتّحدة الكابتن زيوتي (Captain E. J. Zeuty)، الذي سأل الجنود الإسرائيليّين المرافِقين لهم عن وجهتهم النهائيّة، فلم يجيبوه. ولكن "نساء القرية الباكيات أخبرنه أنّهنّ من عيلبون، وأنّ الإسرائيليّين قتلوا وخطفوا رجالًا كُثُرًا من القرية". كان لهذا اللقاء الأثر الأكبر على المراقب الدوليّ، فنظّم من مكتبه في مدينة صفد "عدّة لجان تحقيق إلى عيلبون"، حيث زارت القرية، ووثّقت كلّ ما رأت وسمعت (Palumbo, 1987, p. 163).

كانت النتيجة المتراكمة لهذا التحرُّك الدوليّ المنطلِق من لبنان، واللقاء مصادَفةً مع مراقب الأمم المتّحدة زيوتي، حضور وفود من مراقبي الأمم المتّحدة إلى عيلبون. وصل أوّل هذه الوفود في 1948/11/7؛ ونجد التوثيق الكامل لذلك في مذكّرات الخوري مرقس بشأن ذاك اليوم:

> وبذات النهار، الساعة 1 بعد الظهر، وصل وفد من باريس مؤلّف من 4 أشخاص، فرنساوي وإنچليزي وأمريكي وبلجيكي. سألونا عن كلّ ما جرى بتدقيق. أجبناهم شرحًا وافيًا، فذهبوا إلى المدفن، وفتحنا لهم إحدى الخشاخيش المدفون فيها خمسة من القتلى، فلمّا رأوا ذلك استاؤوا جدًّا... ووعدوا برجوعهم وذهبوا.

12. شهادة فايز عيد.

في ذلك الأسبوع، استمرّ حضور ممثّلي الأمم المتّحدة إلى عيلبون لتقصّي الحقيقة:

> حضر وفد من جماعة برنادوت الساعة 12 ونصف بعد الظهر، وبحثوا بتدقيق عن كيفيّة قتل الـ13، وعن المنهوبات، وعملوا خرائط بالساحة التي اجتمعنا فيها... والشارع المؤدّي إلى أماكن القتل. من مذكّرات الخوري مرقس، 12 تشرين الثاني 1948.

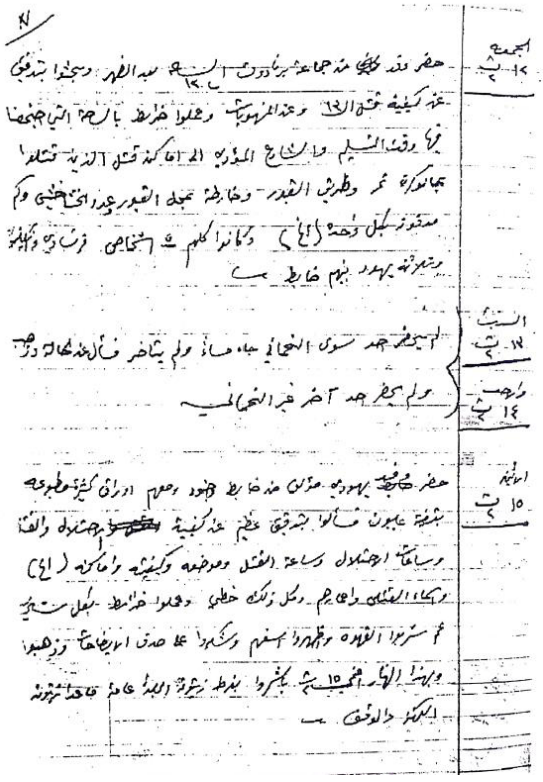

من مذكّرات الخوري مرقس، 12-15 تشرين الثاني 1948 (سرور، 1997).

جمعت لجان التحقيق المعلومات عمّا جرى في عيلبون خلال شهر تشرين الثاني، ولا سيّما في الأسبوع الواقع بين السابع والثاني عشر منه (7-12/11/1948)، وأرسلتْ إلى الأمم المتّحدة تقريرها حامل الرقم UNA 13/3.3.1, box 11تحت عنوان "جرائم أيلول-تشرين الثاني"،[13] والذي شمل كذلك توثيقًا لمجازر أخرى في قرى الجليل، كمجد الكروم والبعنة ودير الأسد على سبيل المثال، فكتب فيه مراقبو الأمم المتّحدة، وعلى رأسهم المراقب الأوّل ف. پ. هندرسون (F.P. Henderson)، استنتاجاتهم الأخيرة بأنّه: "لا شكّ حسب رأي المراقبين أنّ قوّات يهوديّة قد قتلت المدنيّين في هذه القرى"[14] (United Nations, 1948a).

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الممثّل الفرنسيّ في اللجنة، الضابط پيروسيي (Perrossier)، كتب في التقرير الملاحَظة المعبّرة التالية، والتي تشهد لجرأة الخوري مرقس في عرض كلّ تفاصيل الجريمة أمام المحقّقين الأجانب على الرغم من حضور بضعة جنود إسرائيليّين: "بعد أن شاهدت كيف يتصرّف اليهود في الجليل الأعلى، أنا أخشى أن يتعرّض هذا الكاهن إلى عمليّة انتقام منهم". -من تقرير لجنة التحقيق التابعة للأمم المتّحدة، رقم: UNA 13/3.3.1, box 11 (United Nations, 1948a).

من إعلان إلى الصحافة نشره قسم الإعلام في الأمم المتّحدة بتاريخ 1948/11/6، يتكشّف أنّ "د. رالف بانتش [Ralph Bunch]، وسيط الأمم المتّحدة في فلسطين الموجود حاليًّا في باريس (والذي استَبدَل مؤخّرًا كونت بيرنادوت وسيطًا للأمم المتّحدة في فلسطين)، قد قدّم تقريره بشأن أعمال الحرب الأخيرة في شمال فلسطين"، وأنّ التقرير يشمل "توثيق نهب وتهجير قرى في الجليل"، وأنّ تقرير بانتش هذا "سوف يُعْرَض أمام مجلس الأمن في جلسته القادمة في الأسبوع القادم" (United Nations, 1948b). ويذكر المؤرّخ پالمبو أنّه في ذلك الأسبوع، وكما ورد في إعلان قسم الصحافة، عقد مجلس الأمن في باريس جلسات خاصّة بشأن جرائم الحرب التي اقترفتها القوّات الصهيونيّة في الجليل خلال عمليّة حيرام، ليناقش تقرير بانتش وتقرير المحقّق زيوتي "جرائم أيلول - تشرين الثاني"، حيث قام آبا إيڤن، المندوب الإسرائيليّ، بإنكار التهم الموجَّهة إليه من الدول العربيّة، لكن ممثّل الأمم

13. (Atrocities September-November).

14. There is no doubt in the minds of observers that Jewish troops did murder civilians in these villages.

المتّحدة في فلسطين رالف بانتش أدلى بتصريح يؤكّد صحّة موقف الدول العربيّة (Palumbo, 1987; United Nations, 1948c).

ووَفْق الشهادات والأدلّة التي ذُكِرت أعلاه، يُرجَّح أنّ السفير اللبنانيّ لدى مجلس الأمن فؤاد عمّون هو مَن طرح قضيّة عيلبون في إحدى جلسات مجلس الأمن ذلك الأسبوع، مستشهدًا أمام المندوبين برسالة الخوري مرقس الخطّيّة التي تسلَّمَها قبل سفره إلى باريس. من الجليّ أنّ موقف رالف بانتش اعتمد على المعلومات والاستنتاجات الواضحة لدى المحقّق زيوتي في تقريره إلى هيئة الأمم المتّحدة، إذ وَرَدَ فيها: "لا شكّ، حسب رأيي، كمراقب، أنّ اليهود اقترفوا القتل والسرقة في عيلبون"، وأرفق مع تقريره رسمًا لموقع المجزرة يُظهر مواقع قتل الشباب ودفنهم (United Nations, 1948b). أحرجت هذه المعلومات التي عُرِضت في مجلس الأمن المبعوثَ الإسرائيليّ إحراجًا شديدًا، وعلى ما يبدو -استنادًا إلى الأحداث المباشرة التي تبعتها- وافقت السلطات الإسرائيليّة في أعقابها (بعد عدّة أيّام) على السماح لأهل عيلبون بالعودة، أو على الأقلّ غضّت النظر عنهم، بسبب الفضيحة الدوليّة التي تعرّضت لها، وربّما كان ذاك وسيلة دبلوماسيّة اعتمدتها تلك السلطات لتخفيف حدّة القرار المزمَع اتّخاذه. اعتمد مجلس الأمن في النهاية القرار حامل الرقم S/ RES/62 في 1948/11/16، وفيه يدعو إلى عَقْد هدنة فوريّة وإلى وقف لإطلاق النار، ويطالب جميعَ الأطراف بالتراجع إلى خطوط الهدنة السابقة (United Nations, 1948d).

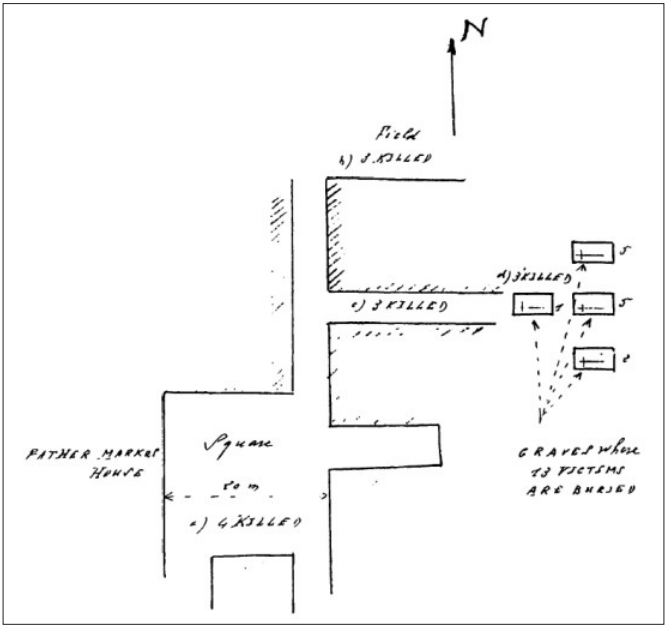

خارطة لموقع المجزرة في عيلبون، رسمتها لجنة التحقيق التابعة للأمم المتّحدة، في تقريرها حامل الرقم: UNA 13/3.3.1, box 11، وهي -على ما يبدو- الخارطة نفسها التي أشار إليها الخوري مرقس في مذكّراته من يوم 1948/11/12.

يستحضر بطرس متّى ما حدث في ذلك اللقاء المفصليّ مع لجنة الأمم المتّحدة في عيلبون وفي اليوم الذي تلاه:

> وصل وفد 4 أشخاص على عيلبون بسيّارة UN. وصلوا الساحة وسألوني أنا: وين بيت الخوري مرقس؟ نزّلناهن على القبور وشافوا القتلى. الخوري أخذهن على دار أبو بركات فيّاض. كانوا اليهود مخربطين الأغراض ومقوّسين صورة العذرا وصورة مار جريس بالرصاص... المندوب الفرنسي حمل مفاتيح السيّارة وقال ترجموا للخوري: خلال 24 ساعة إذا ما بيصدر أمر لترجيع أهل عيلبون سيكون مسح بني صهيون. وتركوا البلد. ثاني يوم أجا واحد على البلد اسمه أبو إسماعيل، يهودي عراقي عنده رتبة

> عالية بالجيش، طلب من الخوري يستلم مكتوب إنّه مسموح لأهل عيلبون يرجعوا والجيش الإسرائيلي ممنوع يتعرّضلهن.[15] -(زوخروت-ذاكرات، 2012، ص 39).

على العكس من شهادة بطرس متّى، التي يذكر فيها تسلُّم الخوري مرقس مكتوبًا رسميًّا يأذن برجوع أهل البلد، فإنّ الوثائق الرسميّة في أرشيف الدولة لا تحتوي على هذه الوثيقة (أو إنّ أرشيفها لا زال يخفي حقيقة وجودها حتّى اليوم)، فضلًا عن أنّ الخوري مرقس لم يذكر في يوميّاته تسلُّمه للوثيقة، وكذلك لم يجد إلياس سرور "في كتابات الخوري مرقس أيّة وثيقة أو مخطوطة بهذا الخصوص"، ولا يَستبعِد أن تكون الموافَقة شفهيّة فقط (سرور، 1998). السيّد فايز عيلبوني، الذي بقي في عيلبون، وكان في بيت الخوري مرقس، وشهد على زيارة الوفود جميعها، يذكر أنّه رأى وسمع المندوب الفرنسيّ حين قال للخوري مرقس: "Eilaboun will come back" [عيلبون سوف تعود]، وأنّه في اليوم التالي حضر ضابط إسرائيليّ إلى بيت الخوري وأعلمه شفهيًّا بأنّه سيُسمَح لأبناء القرية بالرجوع إليها، وأنّه قد صدرت أوامر للجنود الإسرائيليّين على نقطة الحدود قرب سعسع بعدم التعرُّض لأهل عيلبون في طريق عودتهم.[16] يؤكّد المؤرّخ پالمبو في كتابه ما ذكره فايز عيلبوني وبطرس متّى بشأن وجود مندوب فرنسيّ (بالإضافة إلى مندوبَيْن بلجيكيّ وأمريكيّ) في لجنة التحقيق (Palumbo, 1987, p. 167).

على ضوء هذه التطوُّرات السريعة، وبعد التشاور بين الخوري ومن كانوا معه، أُوكِلت مَهَمّة إيصال رسالة العودة إلى أهل عيلبون في لبنان للطفلين بطرس متّى ومخاييل دامونى. بعد بحث عنهم في جنوب لبنان استغرق يومين دون جدوى، أوصل بطرس ومخاييل الرسالة إلى الأهالي في مخيّم الميّة وميّة، فأعلنا أمامهم: "أبونا مرقس يطلب من جميع أهل القرية الرجوع إلى القرية" من شهادة مخاييل دامونى في كتاب إلياس سرور، 1998.

بدأت رحلة العودة في اليوم التالي، فرجعت أوّل مجموعة مع بطرس، قادها بنفسه حتّى مشارف القرية. لحقت بها فرق أخرى بوتيرة أسبوعيّة متتالية، حتّى رجع

15. من شهادة بطرس متّى
16. شهادة فايز عيلبوني

آخِرهم في النصف الثاني من شهر أيّار في العام اللاحق (1949). اجتمع معظم الأهالي الذين في المخيّم، وقرّروا عدم العودة معًا خوفًا من أن يتعرّضوا لمذابح جماعيّة في الطريق، وبدأت رحلة العودة برجوع مجموعات متفرّقة تتكوّن من بضع عشرات أسبوعيًّا حتى رجوع آخر المهجَّرين، حسب شهادة كلّ من مزيّن سكّر وملكة شوفاني وغزالة زريق، وهو ما يشير إليه كذلك إلياس سرور في كتابه (1997). وتكشف الشهادات الشفويّة أنّ المئات (أو ربّما بضعة ألوف) من اللاجئين من قرى أخرى استغلّوا الفرصة ورجعوا إلى بلادهم، فكانوا إذا اعترضهم الجيش الإسرائيليّ على حاجز سعسع قالوا لأفراده إنّهم من عيلبون، فيتركونهم وشأنهم.[17]

الرسائل المتكرّرة إلى السلطات الإسرائيليّة

كان لجهود الخوري مرقس الأثر المباشر، لا في تشكيل لجان التحقيق الدوليّة وإحراج إسرائيل في مجلس الأمن فحسْب، بل كذلك في النضال المتواصل أمام السلطات الإسرائيليّة. فلقد استغلّ معرفته الشخصيّة ببعض المسؤولين، الذين تعاطفوا مع عيلبون، وأرسل العديد من الرسائل إليهم، لا مجال لاستعراضها كلّها هنا. لكن نذكر -على سبيل المثال- رسالته في السادس من تشرين الثاني 1948/11/6 إلى مساعد مدير شرطة طبريّا، على أثر زيارة "الجاويش موشيه (ممان) الذي كان يتردّد علينا وهو من طبريّا يتكلّم عربي" (مذكّرات الخوري مرقس، الإثنين 1 تشرين الأوّل)، طالبه فيها بالعطف على أهل القرية بعد أن شرح له بإسهاب في زيارته لها عن المذبحة، وعن براءة أهلها من تهمة قطع الرأسَيْن:

> وقد عرضنا لسعادتكم عندما شرّفتم ما أصابنا من أَسْر نسائنا وأولادنا ونساء البلدة وأولادهم جميعًا، وسَوْقهم ماشين حافين إلى بلاد لا نعلمها. وسرَّنا وعْدكم بأنّكم ستعطفون علينا وعليهم بالرجوع إلى بيوتهم... فنكرّر الرجاء بحرارة مستصرخين الإنسانيّة والعدالة.[18]

17. شهادة بطرس متّى وفايز عيد.

18. من رسالة الخوري مرقس إلى مساعد مدير شرطة طبريّا، 1948/11/6 (أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ- 302/81).

الخوري مرقس في سنوات الستّين من القرن الماضي أثناء طقس الصلاة في كنيسة عيلبون للروم الملكيّين الكاثوليك (مصدر الصورة: جوزيف مرقس معلّم).

قد يكون الخوري مرقس نجح أحيانًا بإصراره هذا في إثارة روح التعاطف والشعور بالذنب لدى بعض المسؤولين الإسرائيليّين، كالضابط موشيه مـمان، المسؤول عن الفرقة العسكريّة التي كانت في عيلبون بعد الاحتلال (والذي ذكره في رسالته أعلاه)، ووزير الأقلّيّات والشرطة بِخور شِطْريت، وكلاهما من سكّان طبريّا. فقد كان لعائلات هؤلاء (المسؤولين الإسرائيليّين) علاقات شخصيّة وتجاريّة بأهالي القرى العربيّة المجاورة، كالكثيرين من "اليهود العرب" أبناء طبريّا الذين هاجروا من الدول العربيّة إلى فلسطين.

ممان كان على علاقة طيّبة مع عائلة عيلبوني، التي سكن بعض أبنائها في طبريّا، وسكن البعض الآخَر في عيلبون.[19] وشطريت كان قد عمل سابقًا مختارًا لمستوطنة "كنيرت"، ومن ثَمّ قاضيًا في المحكمة المركزيّة في نهاية فترة الانتداب، وكان له صديق عزيز اسمه يوسف الحسيني، أصله من طبريّا، كان في عيلبون في تلك الفترة، وسأل عن أحواله في رسالته إلى الخوري باسيليوس سمّان في 1948/11/25.

تلقّى الوزير شطريت الكثير من رسائل الاحتجاج في الأشهر الأولى من الاحتلال. وتُظهِر رسائل الردّ التي بعثها أنّه في أكثر من مرّة طالب وزارة الخارجيّة

19. شهادة فايز عيلبوني.

الإسرائيليّة والحاكم العسكريّ بالسماح لأهل عيلبون بالعودة. وذات مرّة، طرح المشكلة للبحث في جلسة مجلس الوزراء. كذلك حاول شطريت إقناع يِجْآل يَدين رئيس أركان الجيش الإسرائيليّ بالمبادرة في التحقيق في مجزرة عيلبون، وَفْقَ ما تفيد به بعض الوثائق في أرشيف الدولة، وسأستعرض في ما يلي بعض هذه المراسلات الهامّة.

على ما يبدو، وصلت الوزير شطريت، من محطّة الشرطة في طبريّا، الرسالةُ التي بعث بها الخوري مرقس في 1948/11/6 إلى شرطة طبريّا (وردت آنفًا)، فطلب في أعقاب ذلك برسالة (بخطّ يده) من الحاكم العسكريّ في الناصرة: "التحقيق في ما حدث لأهالي عيلبون، وأين هم اليوم، وهل اتُّخِذت أيّ خطوة فعليّة لإرجاعهم إلى قريتهم". [20]

وبالفعل، يذكر الخوري مرقس، في مذكّراته، قدوم مندوب عن الشرطة للتحقيق بعد رسالة الوزير شطريت تلك بيومين: "جاء بعد الظهر صموئيل أفندي ضابط بوليس من الناصرة ومعه أمين أفندي جاويش، وسألا عن الاحتلال وقتل المقتولين ومحلّات قتلهم ودفنهم".[21]

كذلك أرسل الخوري باسيليوس سمّان، الرئيس الروحيّ لطائفة الروم الملكيّين الكاثوليك، من مكتبه الكائن في الناصرة، رسالة شخصيّة إلى الوزير شطريت في 1948/11/10، يشرح بها مطوَّلًا ما حدث في عيلبون، وعمليّة القتل والتهجير والسرقة، وطالبه فيها بِـ"إرجاع أهالي عيلبون لبلدتهم... أو السكوت عنهم إذا ما أرادوا الرجوع"، فأجابه الوزير شطريت، في تاريخ 1948/11/25 برسالة باللغة العربيّة:

إنّ الحالة التي تتألّمون منها لِما وقع في قرية عيلبون تؤلمني جدًّا... أرجوكم أن تُعْلِموني إلى أيّ جهة نزح سكّان القرية... وهل في إمكانكم أن تقدّموا لي جدولًا بأسماء النازحين. وعلى كلّ، فلقد باشرت قبل وصول تحريركم إليّ بالاعتناء بأمر قرية عيلبون، وأسأل الله أن أتوفّق لتحقيق ما قد يمْكنني تحقيقه لمصلحة القرية.[22]

20. يِخور شِطْريت، وثيقة رقم: م/ش/9430-8608K، في تاريخ 1948/11/23.
21. مذكّرات الخوري مرقس، 25 تشرين الثاني 1948.
22. أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ- 302/81.

أعقب الوزير شطريت رسالته هذه برسالة إلى إليشَع سولتْس، الحاكم العسكريّ في الناصرة، في 1948/11/28 يطلب فيها منه فحص أماكن وجود سكّان عيلبون، وَ"السماح لهم بالرجوع إلى قريتهم إذا كانوا في داخل حدود دولة إسرائيل"، وتعويض خسائرهم ممّا فقدوه من ماشية (وثيقة: م ع/ك ف/16/695). لا نعلم على نحوٍ واضح مدى تأثير رسائل الوزير شطريت على سياسة الجيش والحكم العسكريّ الرسميّة حيال أهل عيلبون في هذه المرحلة، وما إذا كانت قد أسهمت، فضلًا عن المساعي الدوليّة في مجلس الأمن التي ذُكِرت أعلاه، في تسهيل إمكانيّة عودة أهل عيلبون عبْر الحدود.

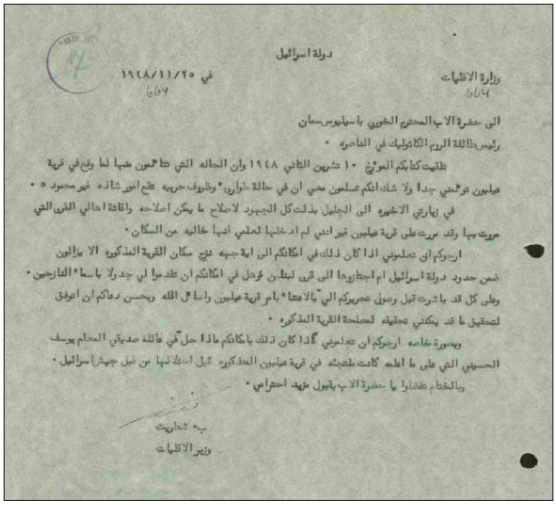

دولة اسرائيل

وزارة الاقليات

في ١٩٤٨/١١/٢٥

الى حضرة الاب المحترم الخوري باسيليوس سمان
رئيس طائفة الروم الكاثوليك في الناصرة .

طلبت كتابكم المؤرخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٨ وان الحالة التي تناهون منها لما وقع في قرية عيلبون عرضي جدا ولا شك انكم تشاطرون معي ان في حالة الحرب، وظروف حربية تقع امور شاذة غير محمودة . في زيارتي الاخيرة الى الجليل بذلت كل الجهود لاصلاح ما يمكن اصلاحه واقامة اهالي القرى التي هربت منها وقد هربت على قرية عيلبون غير انني لم ادخلها لعلمي انها خالية من السكان .

ارجوكم اني تعلموني اذا كان ذلك في امكانكم الى اية جهة تريد سكان القرية المذكورة الا يزالون ضمن حدود دولة اسرائيل ام انجازوها الى قرى تبعد عن حدودها الى جدولا باسماء القارئين . وطي كل قد باشرت قبل وصول تحريركم الي "بالا عما" بامر قرية عيلبون راسلا عن الله وبحسن دعائكم ان اوفق لتحقيق ما قد يمكنني تحقيقه لمصلحة القرية المذكورة .

وبصورة خاصة ارجوكم ان تعلموني اذا كان ذلك بامكانكم ماذا حل في عائلة صديقي المعلم يوسف الحسيني التي على ما اعلمه كانت تقطن في قرية عيلبون المذكورة قبل استيلائنا عليها من قبل جيشنا اسرائيل .

وبالختام تفضلوا يا حضرة الاب بقبول فائق احترامي .

يه شطريت
وزير الاقليات

رسالة ردّ الوزير شطريت إلى الأب باسيليوس سمّان، رئيس طائفة الروم الملكيّين الكاثوليك في الناصرة في 1948/11/28.[23]

23. أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ - 302/81.

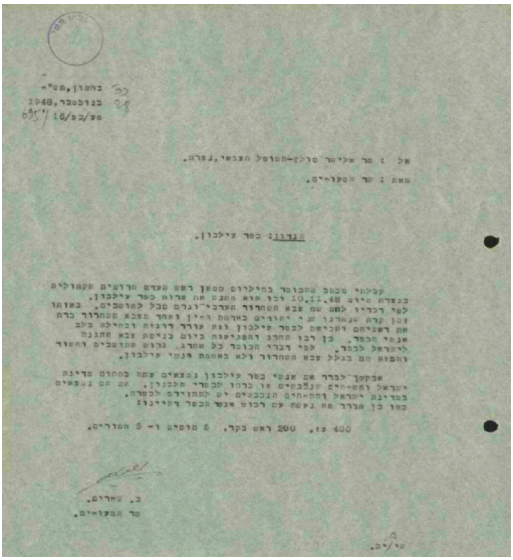

رسالة الوزير شطريت إلى اليشع سولتْس الحاكم العسكريّ في الناصرة في 1948/11/28 (وثيقة: م ع/ك ف/16/695).

ممّا لا شكّ فيه أنّ موقفَ الوزير شطريت المتعاطفَ كان العاملَ المساعد الأكبر داخل الحكومة الإسرائيليّة للتحقيق والمطالَبة بمساعدة أهل عيلبون، ولا سيّما في قضيّة تسجيل السكّان وأراضيهم بعد أن عادوا من لبنان، وهي المعركة الثانية التي قادوها بنجاح.

معركة الصمود بعد العودة

واجه أهل عيلبون مشكلة جديدة بعد أن نجحوا في الرجوع، إذ لم يحصلوا على شهادات تسجيل رسميّة، وذلك بحجّة عدم وجودهم في القرية آنذاك، وبالتالي لم تُمنح لهم حقوق الجنسيّة، ولم ينالوا "ورقة الهُويّة". وبالفعل، طردت السلطات بعضهم إلى الأردن بعد أن عادوا من لبنان، واستمرّت في اعتقال العشرات من شباب القرية. كذلك رفضت الدولة تسجيل أراضيهم

الخاصّة، ومصدر رزقهم الوحيد، في مكتب تسجيل الأراضي (الطابو)، بل لقد عرضتها للإيجار العامّ تحت تعريف "أملاك الغائبين" كونهم غير مسجَّلين كمواطنين على نحوٍ قانونيّ. وبِذا، بدأت أيضًا مرحلة الصراع حول أراضيهم التي أرادت المؤسَّسات الصهيونيّة السيطرة عليها وتحويلها إلى أراضي "حاضرين غائبين"؛ فبادر الخوري مرقس إلى إرسال الرسائل والعرائض والاحتجاجات إلى جميع المؤسَّسات الحاكمة في إسرائيل، ولقد قابل الكثيرين منهم شخصيًّا، وعرض المشكلة على قناصل ومبعوثين أجانب ومندوبي الأمم المتّحدة والصليب الأحمر واليونسكو، ومعارفه من رؤساء الكنائس والأديرة (سرور، 1998). لم تستجب السلطات الإسرائيليّة لمطالبه في الأشهر الأولى للاحتلال، بل تجاهلتها في معظم الأحيان، فبات خطر التهجير وخسارة الأملاك يحوم مجدَّدًا فوق عيلبون. وكان الوزير شِطريت العنوانَ الأساسيّ لمَطالب القرية، فأُرسلت إليه، في 1949/1/21، رسالة مفصَّلة لأحداث نكبة عيلبون، وقّعها كلّ من الخوري مرقس، والخوري إلياس زريق (كاهن الطائفة الأرثوذوكسيّة في القرية)، والأب يوحنّا المعلّم، والمختار فرج سرور، ووجيهان من القرية هما نمر إبراهيم عيد وفرج أيّوب العيلبوني. استنجد الموقّعون بالوزير شطريت كما يستنجد الغريق بوسيلة النجاة الأخيرة التي قد تنقذه من الموت، لكنّهم عرضوا كذلك حقائق وتسلسل الأحداث التي تبيّن ظلم الدولة لهم، فوصفوا عمليّة القتل الممنهَج وسرقة أملاكهم، مصرّين بذلك على عدم دفن الحقيقة (تجدون لاحقًا صورة عن الرسالة). وفي برقيّة أخرى بعد تلك الرسالة بيومين ذكّروه مجدَّدًا:

> معالي وزير الأقلّيّات: براءة عيلبون من كلّ تهمة واضحة. طُردِنا من بيوتنا، والآن تُوزَّع أملاكنا بطرحها للإيجار. هذه كارثة جديدة تقضي على حياتنا. تداركوا ذلك بتدخُّلكم السريع. نستنجد بعدلكم وإنصافكم. -من برقيّة باسْم أهل عيلبون بتوقيع كلّ من المختار فرج سرور، والخوري إلياس، والخوري مرقس، 1949/1/23.[24]

24. أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ-302/81.

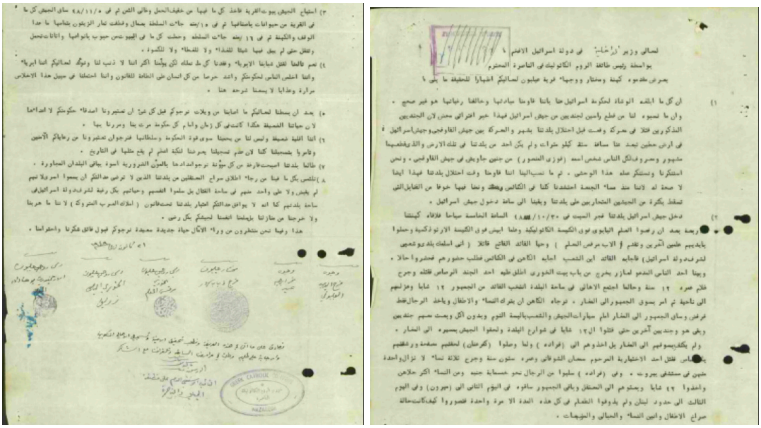

رسالة وجهاء القرية إلى الوزير شِطريت في 1949/1/21.[25]

أُرسِلت عدّة رسائل كهذه إلى الوزير شِطريت في كانون الثاني سنة 1949، فقام، بدوره، بكتابة رسالة شخصيّة إلى رئيس الوزراء داڤيد بن چوريون، مرفقًا معها ترجمة ثلاث رسائل إلى العبريّة، طالبًا منه الموافَقة على الاقتراحات التالية:

1. أن نجيبهم أنّنا نأسف لِما حدث وقت الحرب، وأنّنا سنرسل لهم موظّفًا حكوميًّا لأخذ أسمائهم جميعًا وتسجيلهم في سجلّ المواطنين...

2. الطلب من قسم أملاك الغائبين إرجاع كلّ أملاك سكّان عيلبون.

3. فحص قضيّة المعتقَلين وإطلاق سراح من لا يشكّل خطَرًا...[26]

تجدر الإشارة أنّه في نهاية رسالته هذه، يعترف الوزير شِطريت أمام بن چوريون أنّ أهل القرية هُجِّروا (طُرِدوا) بعد الاحتلال،[27] وهو اعتراف صريح ونادر جدًّا من مسؤول إسرائيليّ بهذا المستوى؛ إذ لقد تجنّب هؤلاء، في المعتاد، استعمالَ كلمة "تهجير" أو "طرد" ("چيروش") في الوثائق والرسائل الرسميّة.

25. أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ-302/81.

26. رسالة الوزير شِطريت إلى بن چوريون، في 1949/2/8، أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ-302/81.

27. "أنْشي هَكْفار چُرْشو لِآحَار هَكِيبوش".

على ما يبدو، لم يستجب بن چوريون حتّى هذه المرحلة لأيّ من مطالب القرية واقتراحات الوزير شِطريت فعليًّا، فاستمرّ أهالي القرية بتوكيل كهنتها وبعض الوجهاء لإرسال المزيد من الرسائل إلى شطريت. امتازت رسائلهم التي وُجِّهت في آذار سنة 1949 بكثرة عبارات التوسُّل، المُطالِبة بالعدل والرحمة. وفي إحداها وأكثرها بلاغة ذكّر أهلُ عيلبون الوزيرَ بالضربات التي نالها اليهود من فرعون في مصر القديمة، وذلك عشيّة اقتراب عيد الفصح في تلك السنة، علّها تثير بعضًا من الشفقة لدى السلطات:

> كفانا لوعة أن رأينا بعيوننا أربعة عشر شابًّا قتلى برصاص الجيش. كفانا لوعة أن نرى أمّهاتهم ونساءهم لا شغل لهم إلّا البكاء. كفانا لوعة أن تُسلب مواشينا بأصنافها ولم يبقَ لنا حيوان واحد. كفانا لوعة أن تُجرَّد منازلنا من كلّ ما تحتويه. كفانا لوعة ما نالنا من خوف ورعب وحَرّ وبرد وعُرْي ومرض. هذه الضربات العشر احتملناها بصبر جميل، وقد عدنا إلى بيوتنا مفضِّلين الموت فيها على الحياة خارجًا. ولم نجد رحمة ولا حنانًا. إذ تارةً تؤجَّر أملاكنا كأنّها ليست لنا وتارةً تهدّدنا الأخبار بطردنا مرة أخرى. إنّنا لا ذنب لنا ولا جريمة، والله تعالى لا يسكت عدله عن صوت المظلوم، ونحن نُعْلي الصراخ ونقول إنّنا مظلومون. -من رسالة كهنة عيلبون والمختار فرج سرور إلى الوزير شِطريت، في 1949/3/11.[28]

انتظر الوزير شِطريت أكثر من شهر، ثمّ أرسل نسخة عن هذه الرسالة إلى بن چوريون في عيد الفصح في 1949/4/18، وطالبه مجدَّدًا بأن يردّ على مَطالب القرية، ولفت انتباهه أنّ "هذه الاحتجاجات المستمرّة، والتي تأتي من قيادات دينيّة، قد تضرّ بسمعتنا إذا لم نعالجها على نحوٍ عميق وصريح".[29]

28. أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ- 302/81.
29. أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ-302/81.

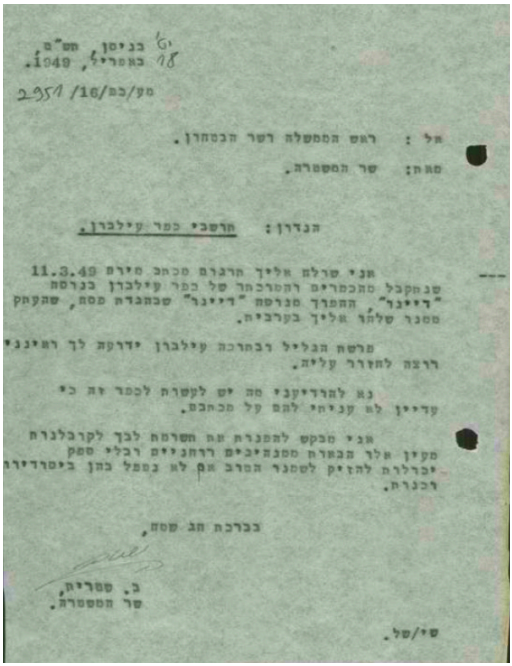

رسالة الوزير شِطريت إلى رئيس الوزراء بن چوريون، 1948/4/18.[30]

لم يُطرد أهل القرية مجدَّدًا، لكن الدولة تقاعست عن الاستجابة لمطالبهم نهائيًّا. احتاج الأهالي إلى متابعة تمسُّكهم بالقرية وبأراضيهم لأشهُر طويلة أخرى، فرفضوا جميعًا عرض الدولة بتأجيرهم أراضيهم مقابل مبلغ سنويّ زهيد (مقداره قرش واحد)؛ فقد كان من شأن التوقيع على هذا العرض أن يثبت عدم ملْكيّتهم لأراضيهم. ذات مرّة، حاول مديرُ صندوق أراضي إسرائيل تهديد الخوري مرقس ومجموعة من السكّان بطرد أهل القرية مجدَّدًا إذا لم يوقّعوا على عرض الإيجار، فكان ردّهم صارمًا بلا مهابة: "أوّل مرّة طلّعتونا بالخدعة وقلتولنا بَس للمغار وبعدين بترجعوا. هاي المرّة منموت بعيلبون كلّنا ولا منطلع".[31]

30. أرشيف دولة إسرائيل، ملفّ عيلبون جـ-302/81، (ك ف/16).

31. شهادة جوزيف مرقس معلّم.

قاد أهل عيلبون بعدها معركة قضائيّة تضمن حقوقهم، استغرقت بضع سنوات، مثّلهم فيها المحامي حنّا نقارة (شهادة صبحي سرور). كذلك يذكر بيني موريس في كتابه "ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيّين" أنّ المطران جورج حكيم وقّع اتّفاقيّة مع دولة إسرائيل بواسطة ممثّلها يهوشواع پلمون (مستشار رئيس الحكومة) في صيف عام 1949، وكان أحد شروطها منح أهل عيلبون جنسيّة إسرائيليّة، وتثبيت ملْكيّتهم لأراضيهم الخاصّة (موريس، 1991، ص ص. 305-306؛ منّاع، 2016، ص. 257).

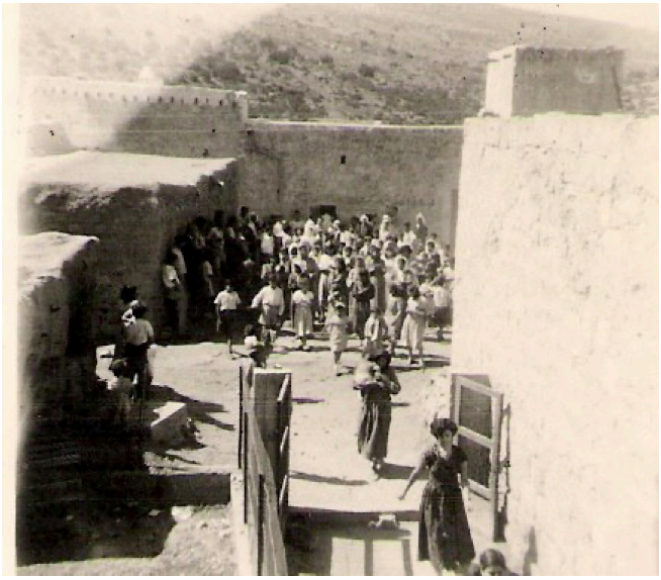

ساحة القرية الرئيسيّة في سنوات الخمسين، بعد العودة ببضع سنوات، وفي الخلف بيت الخوري مرقس (سرور، 1997).

تلخيص

تُجْمِع الشهادات الشفويّة والرسائل التي كتبها الخوري مرقس جميعها على بُطلان المزاعم الصهيونيّة أنّ أهالي القرية قد قتلوا اثنين من الجنود الإسرائيليّين، ومثّلوا بجثّتَيْهما، وقطعوا رأسيهما، في محاولة لتبرير ارتكاب المجزرة ضدّ أهل عيلبون العُزّل. ويُجمع الجميع على أنّ قتل الجنديَّيْن اليهوديَّيْن، وقطع رأسيهما نفّذه جنود جيش الإنقاذ تحت قيادة فوزي القاوقجي، وأنّ خوري القرية وأهلها زجروهم، وحاولوا ثَنْيَهم عن مواصلة التنكيل بالجنديَيْن المقتولَيْن.

في عيلبون، على الرغم من مرور 76 عامًا على النكبة، ما زالت شهادات أبنائها وذكرياتهم حول المجزرة مبلّلة بالدموع، وتعكس حالة الصدمة التي ما برحت تلازمهم. يروي شهود العِيان بحزن كيف قُتل عازر مسلَّم ابن حوران أمام أهالي البلدة جميعًا بغية ترويعهم ودفعهم إلى الرحيل، وتغمرهم الدموع حين يروون كيف انتُقِيَ اثنا عشر شابًّا من القرية، وانتُحِيَ بهم جانبًا، فيما كان الأهالي يسمعون أزيز الرصاص وهم قد بدأوا مسيرة الرحيل باتّجاه لبنان، تتقدّمهم دَوْريّة إسرائيليّة وتَتْبعهم دَوْريّة أخرى.

في النهاية، نجح أهل القرية في العودة بالرغم من احتلالها وخسارة كلّ الجيوش العربيّة لفلسطين، وعلى الرغم من القوّة العسكريّة الإسرائيليّة المتفوّقة. في جوّ كهذا من الهزيمة والانكسار، كان أهل عيلبون شمعة صغيرة تضيء طريق الرجوع للآخرين، فعاد معهم بضعة آلاف من قرى الجليل الذين ادّعوا أمام الجنود الإسرائيليّين على الحدود أنّهم من أبناء عيلبون (سرور، 1997؛ منّاع، 2016)، ليحقّقوا حلمًا لم يتكرّر.

على ضوء هذه الدراسة، يمكن إذًا تلخيص أسباب عودة أهالي عيلبون إلى قريتهم بما يلي:

1. شجاعة الخوري مرقس ومثابرته وإيمانه بتحقيق العدل لأهل القرية، وحِدّة قلمه الذي لم يتوقّف عن الكتابة. لا زال ابنه جوزيف حتّى اليوم يَذْكر أنّ أباه احتفظ دومًا بقلم ودفتر صغير في جيبه، وكثيرًا ما رآه يخطّ باستعجال نصّ رسالة جديدة هنا، وطلب معونة هناك، فكان القلم سلاحه الأوّل والأخير أمام سوء الحال وغدر الزمان.

2. صمود من بَقُوا في القرية من كهنة وكبار السنّ ونساء وبعض الأطفال أمام هول المجزرة، وأمام استمرار الإهانات، وسرقة كلّ محتويات البيوت والمزروعات. فلم يتركوا عيلبون يومًا واحدًا، وردع وجودهم هذا الجيشَ الإسرائيليّ عن هدم بيوت القرية (كما فعل في العديد من القرى المجاورة -المهجَّرة)، بعد أن حضّر العدّة لذلك.

3. شجاعة أهلها كبارًا وصغارًا، واستعدادهم للمخاطرة بأرواحهم أثناء التنقُّل، على نحوِ ما فعل -على سبيل المثال- الطفلان بطرس متّى ومخاييل داموني اللذان وجدا أهل القرية في مخيّم الميّة وميّة بعد ثلاثة أيّام من البحث، ونقلا لهم طلب الخوري مرقس إليهم أن يرجعوا.

4. العلاقات الشخصيّة والعائليّة الممتدّة من عيلبون إلى بيروت إلى مجلس الأمن، والتي كانت السبب الأوّل في عرض قضيّة عيلبون على أعلى المستويات الدوليّة، وهو ما فضح إسرائيل وأوقعها تحت ضغط دبلوماسيّ كبير.

5. لجنة التحقيق التي أرسلها مجلس الأمن على أثر جلسته بحضور فؤاد عمّون مندوب لبنان، واستخدام رسالة الخوري مرقس فيها إثبات واضح على جرائم الحرب التي اقترفها الجيش الإسرائيليّ.

6. لجنة التحقيق التي أرسلها مراقب الأمم المتّحدة الكابتن زيوتي، بعد أن التقى بعض المهجَّرين في طريقهم إلى لبنان، والتي وثّقت الجرائمَ كلّها دون أيّ شكّ.

7. مساعَدة الهيئات الدينيّة المسيحيّة الكاثوليكيّة محلّيًّا (المطران حكيم، والخوري سمّان وغيرهما) في المراسلات وإيصال المؤن إلى العائدين.

8. العلاقات الشخصيّة (التي سبقت النكبة) مع بعض المسؤولين الإسرائيليّين الكبار، ولا سيّما أبناء طبريّا (على سبيل المثال: الوزير بِخور شِطْريت)، إذ لم يتردّد الخوري مرقس وأهل القرية في محاولة للاستفادة من هذه العلاقات القديمة عبْر إثارة المشاعر الإنسانيّة لديهم.

9. التلاحم والتعاون وقلّة الخلافات بين أبناء عيلبون في معركتهم لاسترجاع أراضيهم والحصول على حقوقهم كمواطنين في الدولة.

10. ويجب ألّا ننسى حالة التحابّ العميق التي اتّسم بها أهل عيلبون في ما بينهم، ومحبّتهم لقريتهم الخالية تمامًا من السكان، وتحمُّلهم أقسى الظروف المعيشيّة حتّى نجحوا معًا في النهوض بها من الموت.

المَصادر

أرشيف دولة إسرائيل. (1981). **ملفّ عيلبون. جـ-302/81 (ك ف/16)**.

پاپه، إيلان. (2006). **التطهير العرقيّ في فلسطين**. أوكسفورد: وَنْ وُورْلْد. (نُشِر بالعبريّة).

دائرة الإحصاء المركزيّة الإسرائيليّة. (2023). **كتاب الإحصاء السنوي 2023**. مستقاة من: https://shorturl.at/Prrql

الدبّاغ، مصطفى مراد. (1965). **بلادنا فلسطين**. بيروت: دار الطليعة.

زريق، ماجدة. (محرّرة). (2016). **سنذكر قصصكم ما حَيِينا**. عيلبون: نادي المسنّين.

زوخروت/ذاكرات. (2012). **ذاكرات نكبة عيلبون**. القدس: مطبعة الرسالة.

سرور، إلياس. (1997). **عيلبون: تاريخ وذكريات**. الناصرة: مطبعة الحكيم.

سرور، إلياس. (1998). **النكبة في عيلبون**. عيلبون: مطبعة كل شيء

الخوري مرقس. (1948). مذكرات. عيلبون. (لم تنشر)

منّاع، عادل. (2016). **نكبة وبقاء: حكاية فلسطينيّين ظلّوا في حيفا والجليل 1948-1956**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

مورِس، بيني. (1991). **ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيّين**. تل أبيب: عم عوفد.

مورِس، بيني. (2008). **1948: تاريخ الحرب العربيّة - الإسرائيليّة الأولى**. نيو هافن: جامعة ييل (نشر بالانكليزية).

الهوّاري، محمّد. (1955). **سرّ النكبة**. الناصرة. (دار النشر غير مذكورة)

Palumbo, Michael. (1987). **The Palestinian catastrophe: The 1948 expulsion of a people from their homeland**. London: Faber and Faber.

United Nations. (1948a). **UNA 13/3.3.1, box 11, Atrocities September-November**.

United Nations. (1948b). **Report on Northern Palestine fighting**. New York: Department of Public Information, Press and Publications Bureau. Press Release PAL/370, 6.11.1948.

United Nations. (1948c). **SC/OR: S/1071, Report from the acting mediator**. Security Council, 6.11.1948. Retrieved on (May 10, 2024), from: https://digitallibrary.un.org/record/471487?ln=en&v=pdf

United Nations. (1948d). 62 (1948) Resolution of 16 November 1948. The Security Council. Retrieved on (May 10, 2024). from: https://www.un.org/securitycouncil/content/resolutions-adopted-security-council-1948.

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات
الاجتماعية التطبيقية